

حياته

إنه أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري..

يقول عنه صاحب «الكواكب الدرية» :

«العارف الناطق بالحقائق، الفائق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العاملة العاملة، والهمم الجليلة، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها» (١).

ويقولون في وصفه :

«كان رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة» .

* كيف كان ذو النون في طفولته وشبابه؟..

في ذلك يقول يوسف بن الحسين :

استأنست بذي النون، فقلت له :

أيها الشيخ : ما كان بدء شأنك ؟

قال :

«كنت شاباً صاحب لهو ولعب» .

ونحب أن نقف ونقول أولاً : إنه كان يعيش الحياة العادية للشبان لا يعبأون بوقت يمر لا يشغلونه بما يفيد ، ولا تعنى الكلمة أنه كان عاصياً سيئ الأخلاق ، لأنه يقول بعد ذلك :

(١) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« وخرجتُ حاجاً إلى بيت الله الحرام » .

ثم يقول :

« ومعى بضیعة فى المركب مع تجار من مصر » .

وهذه الكلمة الأخيرة، قد ترشد إلى أنه اشتغل فى شبابه بالتجارة .

ويبدو أن هذه الحجة كانت الأساس فى اتجاهه إلى الله .

والواقع أن الحج من الوسائل الكبرى للتوبة الصادقة والإخلاص والصدق ، وأن أعمال الحج منذ أن تبدأ بالتوبة ، ولبس الملابس البيضاء - ملابس غير مخیطة لم يدخلها المقص ، ولم تعمل فيها الإبرة ، ولم تُدَنَسْ بالذنوب - وصلاة ركعتين مع النية التى تتجه إلى الله فى العون والمثوبة ، ثم الجهر بالتلبية : أى : الاستجابة الخالصة لله فى أعماله ، ثم بقية الأعمال التى تنتهى برجم مصدر الشر - إبليس - ثم الطواف على طهر ونقاء . .

إن كل ذلك فيما أفترض هو مبدأ تحوُّل ذى النون .

إنى أفترض - إذن - أن هذا الحج كان من العوامل المهمة فى حياة ذى النون ، وأنه فصل فيها بين مرحلتين :

* إحداهما: المرحلة العادية الأولى .

* والثانية : هى مرحلة التزكية .

ومع ذلك فهناك مجال لاحتتمالات أخرى . . وهذه الاحتمالات نأخذها على أنها رمزية جميلة فى رمزيتها ، أو نأخذها على أنها حقيقة عجيبة فى وصفها .

أحد هذه الاحتمالات : ما روى من أنه سئل عن سبب توبته . . فقال :

« خرجتُ من مصر لبعض القرى ، فنمت في الطريق في بعض الصحارى، ففتحت عيني، فإذا بقُبْرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض، فخرج منها سكرجتان: إحداهما ذهب، والأخرى فضة. وفي إحداهما سمسم، والأخرى ماء ، فجعلتُ تأكل من هذه ، وتشرب من هذه ؛ فقلتُ: حسبي، قد تبتُّ ، ولزمتُ الباب إلى أن قُبِلْنِي » (١) .

هذه هي قصة الاحتمال الثاني .

وما من شك في أن الرزق مضمون ، وأن الله سبحانه قد ضمن الرزق :

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢) .

ثم يقسم الله تعالى على ذلك فيقول :

﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَتَطَفَّؤْنَ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٤) .

(٢) سورة الذاريات : ٢٢ .

(٤) سورة هود : ٦ .

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم .

(٣) سورة الذاريات : ٢٣ .

وهذه القصة التى تُروى على لسان ذى النون : أهى قصة رمزية أراد بها ذو النون أن يوضح عناية الله بمخلوقاته ، ورحمته بهم ، ورعايته لهم ، وهو سبحانه الرحيم الودود ، الرؤوف الرحيم ، أرحم الراحمين ، وخير الكرماء ؟

أم هى قصة حقيقية . . وأن لله تعالى عجائب فى الكون تظهر لذوى البصيرة ، لا يعدها عد ، ولا تحدها حدود ؟! . . .
وليست القصة بمستحيلة ، وإنها لفى غاية الجمال فى الدلالة على جميل عناية الله بمخلوقاته .

واحتمال ثالث: يقول صاحب «الكواكب الدرية» عن ذى النون :
وكان اسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل : الفيض ، وأصله من النوبة ، ثم نزل إخميم ، فأقام بها ، فسمع يوماً صوت لهو ودفاف .
فقال :

ما هذا ؟

قيل : عرس .

وسمع بجانبه بكاء وصياحاً .

فقال :

ما هذا ؟

فقيل : فلان مات .

فقال :

« أعطى هؤلاء فما شكروا ، وابتلى هؤلاء فما صبروا » . . وأقسم أن لا يبيت بالبلد ، فخرج فوراً إلى مصر فقطنها .

وهذه فى الواقع قصة عادىة تحدث كل يوم . . ويمر بها الناس فلا تثير فى نفوسهم شيئاً .

ومع ذلك : فإنها عبرة للذين هياً الله نفوسهم للتأمل فى عبَر الحياة حينما تمر بهم ، والحياة مليئة بالعبر ، يمر بها قوم فلا يلتفتون إليها ، ويمر بها آخرون فيفكرون ويتأملون ويدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى فيهم :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١).

لقد هياً الله نفس ذى النون فى تلك الساعة ، فأثرت فيه عبرة الحياة ، فكانت الهداية .

وهذه الاحتمالات لا ينفى بعضها بعضاً ، ومن الممكن أن تكون قد تكاثفت وتعاونت ، فأنتهت به إلى التأثير فى جميع أقطار نفسه ، فتأب وأتابَ وسلكَ الطريق .

ثم إنها لا تنفى احتمالاً رابعاً له قيمته الكبرى فى نظرنا ، وذلك أن صاحب « الحلية » يقول : « وكان شيخه فى الطريق شقران العابد » . هل كان شقران أساس هدايته ؟ . . هل تلقَّفه قبل أن تتحول به الحياة من طريق إلى طريق ؟ . . فكان الوجه له ، والمرشد له بعد الحج ؟

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

.. أم تلقَّفه وهو فى حيرة يتحسس الطريق حتى يسير آمناً مطمئناً؟

- إنها احتمالات كلها ممكنة .

ولعلها جميعاً تعاونت فأخرجت لنا ذا النون المصرى ، رضوان الله عليه .

ومهما يكن من شىء . . فإننا نرى أن توبة ذى النون إنما بدأت برحلته هذه إلى الحج ، ويبدو أنه أخلص النية فى هذا الحج فرجع منه كيوم ولدته أمه .

ورسول الله ﷺ يقول :

«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» .

ورسول الله ﷺ يتناسق مع القرآن الكريم فى هذا إذ يقول الله تعالى :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (١) .

والرفث : فحش اللسان ، والفسوق : فحش الجوارح ، والجidal : النزاع والمشاحنة .

إن ذا النون تأثر - لا شك - بالحج ، وهو حينما يتحدث عن هذه الحجة الأولى يتحدث معها عما شاهده فيها من تجليات الله على بعض عباده ، وأن ذلك أثر فى نفسه .

بيد أن العامل الحاسم فى حياة ذى النون إنما هو لقاءه بـ « شقران العابد » .

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

وكان شقران شخصية ممتازة قوية ، وإن كنا لم نعثر له على كتب أو ترجمة مستفيضة ، ولكن الإمام الشعراني يقول عنه :
«شقران المغربي العابد: شيخ ذى النون المصرى ، عارفٌ ظَهَرَ ضياؤه ، وطابَ ذِكْرُهُ وثنائُهُ ، كان ذا أحوال باهرة ، ومقامات فاخرة» .

ومن كلامه :

« إن لله عبادةً خرجوا إليه بإخلاصهم ، وشمَّروا إليه بنظافة إسرارهم ، فأقاموا على صفاء المعاملة ، وبادروا إلى استماع كلامه بحضور أفهامهم ، فعند ذلك نظر إليهم بعين الملاحظة فأجزل لهم المواهب ، وحقَّتْ لهم منه العطايا ، فشَمُّوا روائح القرب من قربهِ ، وهَبَّتْ عليهم رياح اللقاء من تحت عرشه ، فتطايرت أرواح قلوبهم إلى ذلك الروح العظيم ، ثم نادى : لا بَرَّاح . »

وقال :

« ألا خُلَّ خدوم ؟

.. ألا صديقٌ يدوم ؟

.. ألا حليفٌ وداد ؟

.. ألا صحيحٌ اعتقاد ؟

.. أين من استراح قلبه بحب الله ؟

.. أين من ظهرَ على جوارحه نور خدمة الله ؟

.. أين من عرفَ الطويق ؟

.. أين من نظرَ بالتحقيق ؟

.. أين من سقى فَبَاح ؟

.. أين من بكى وناح ؟

- أولئك تحفُّ بهم الملائكة بالليل والنهار وتسلم عليهم الحيتان من البحار .

ومن كراماته :

أنه أراد ليلة أن يغتسل فلم يجد ماء ، فلحظ إلى السماء وقال :
« اللهم قد عجزتُ عن الماء ، وانقطع رجائي من غيرك ، فاعطفْ
على قلة حيلتي ، فسمع وقع الماء فى الإناء فقام إليه فوجده بارداً ،
فحرَّك شفتيه فإذا به قد سخن ... » .

« وقد مات بمصر ودفن بالقرافة بقرب قبر عقبة » . . اهـ .

- أين التقى به ذو النون ؟ وكيف أخذ العهد عليه ؟

- وما هى الكيفية التى رسمها له ليسيير فى معراجهِ إلى الله ؟
كل هذه أسئلة لا نجد لها جواباً من التاريخ ، ولكنها أسئلة ليست
بجوهرية فى موضوعنا ، ذلك أن الطريق الذى يرسمه الشيخ - كل
شيخ صادق - معروف فى جوهره : إنه يبدأ بالتوبة الصادقة النصوح .
وهذه هى الخطوة الأولى الأساسية . . وهى خطوة من صميم
الشرع ، فالتوبة من الذنوب واجبة ، بل هى مطلوبة ، ولو لم تكن
هناك ذنوب من الذنوب المتعارف عليها ، وقد قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

أى : الذين يكثرون من التوبة ، وما التوبة إلا خضوع وتضرع وتذلل ، فهي من صميم العبودية ، ومن أجل أنها من صميم العبودية كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة .
ولقد حث الله عباده على التوبة بشتى الأساليب ، من ذلك قوله تعالى فى حديث قدسى ، فيما رواه الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى :

« يَا عِبَادِ : إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ؛ فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ » .

أى : استغفرونى استغفاراً صادقاً ، والاستغفار الصادق هو توبة صادقة ، فإذا فعل الإنسان ذلك غفر الله له وتاب عليه . والتوبة الصادقة تجب ما قبلها ، إنها تضع التائب فى مرتبة « البراءة » . فإذا ما تاب المرید لقنه الشيخ : « الذَّكْر » .

والذكر من صفات أولى الألباب ، وذلك أن من صفاتهم - التى ذكرها الله سبحانه - أنهم :

﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (١) .

والأمر بالذكر فى القرآن الكريم استغرق الأزمنة والأحوال المختلفة للإنسان ، سواء أكان تسبيحاً أم تهليلاً وحمداً وتكبيراً وحقلة .

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

وهذه هي الباقيات الصالحات ، وهذه هي المنجيات الحاميات .
ولقد قال الله سبحانه وتعالى عن النبي «ذى النون» عليه السلام :
﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُخْرَجُ ﴾ (١)
لقد نجاه التسبيح .

ولقد قال أحد من أصابتهم كارثة لإخوته :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٢) ؟ .

أى أنهم لو اتَّبَعُوا كلامه وسَبَّحُوا الله لَمَّا أصابتهم الكارثة .
ومن الذكر الذى يصفه الشيخ لمريده : الصلاة على الرسول
عليه السلام . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

فالشيخ - إذن - فى أخذه بيد المريد إنما يبدأ بالتوبة ويشئ بالذكر .
ولكن الشيخ وقد أخلص وجهه لله ، وملاً الله عليه جميع أقطار
نفسه ؛ فأصبح ربانياً يقود مريده عن طريق الاسوة أيضاً .
إن المريد يرى فى شيخه الاعتماد على الله والتوكل عليه وابتغاء
مرضاته فى كل ما يأتى من الأمور وما يدع منها .

(١) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) سورة القلم : ٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب : ٥٦ .

إنه يرى فى شيخه : الصدق ، والرأفة ، والرحمة ، ومواساة
البائسين ، والعطف على المساكين ، وهداية الحيارى ، ويرى فيه
التأسى برسول الله ﷺ ، والعمل بما أمر به القرآن ، والانتهاز عما
نهى عنه القرآن . . فيقتدى بشيخه ، ويتأسى به .

التوبة ، الذكر ، الأسوة ، وأمر رابع هو تأثير الشيخ روحياً فى
المريد ، وهذه الظاهرة معروفة من قديم : إن نظرة الشيخ لمريده لها
أثرها .

ولقد وجد ذو النون فى شقران العابد الشيخ المرشد ؛ فاتبعه إلى
أن أصبح هو نفسه شيخاً مرشداً .
